

منهج ابن باديس في الإفادة من مصادر التفسير

Ibn Badis Approach To Benefit From The Sources Of Interpretation

الدكتور: خالد بن زيان *

Salah78982@yahoo.com

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)

تاريخ الارسال: 2019/06/14 تاريخ القبول: 2020/10/16 تاريخ النشر: 2021/03/01

ملخص

هذه الدراسة تبين المصادر التي اعتمد عليها العلامة ابن باديس في تفسيره الموسوم بـ: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" و منهجه في الإفادة من هذه المصادر ، مع جرد تام لكل مصادره في التفسير و الأدب و غيرها و منهجه في الإشارة إليها و الأخذ منها .
كلمات مفتاحية: ابن باديس، تفسير، مصادر، منهج، إفادة.

Abstract:

This study displays the resources of the scholar IBN Badis in his interpretation of the Coran, and this article illustrates How IBN Badis benefits from his resources (methodology and approaches).

Key words: Ibn Badis, interpretation, sources, method, statement.

لا عجب أن يحظى تفسير القرآن الكريم، معجزة النبي الخالدة، و منهاج حياة هذه الأمة و دستورها بكل هذا الاهتمام الفائق، الذي لم يحض به أي علم من العلوم، و قد قيل : "إنَّ شرف العلم بشرف المعلوم" فيكفي القرآن الكريم شرفاً أنه كلام الله. و لأجل ذلك كان علم لتفسير هذه المكانة المرموقة بين جملة العلوم القرآنية: يتصدى لإيضاح ما استغلق و بيان ما أشكل من القرآن الكريم، فكان الفضل لهذا العلم في ربط المسلمين بكتاب ربهم عزّ و جلّ و تيسير فهمه عليهم.

و لم ينقطع التأليف في هذا العلم في عصر من عصور المسلمين التاريخية، على اختلاف المدارس والمشارب و الفنون التي برز فيها مصنفوها، فقد بذل العلماء وُسعهم في خدمة كتاب الله العزيز، كل على حسب ما يستره الله إليه.

و قد كان العلامة ابن باديس — رحمه الله — من العلماء الذين اجتباهم الله سبحانه و تعالى لخدمة كتابه. و كان من القلائل ممن فهم العصر و ظروفه، في ظلمة الإستعمار الفرنسي الذي عاش فيه.

فأدرك أبعاد المهمة الخطيرة الملقاة على عاتقه، و عظمة الدور، فوضع منهجا إصلاحيا و دعويا جدير بكل مصلح و داعية إلى الله أن يقتدي به و يأخذ منه الدروس و العبر. فأدرك - رحمه الله - أنه لا سبيل إلى الخلاص و نخصة الأمة إلا بالعودة إلى كتاب الله العزيز، فابَّحَ رحمه الله إلى تفسير القرآن الكريم فساهم بمنهجه الجديد الإصلاحى في خدمة كتاب ربّه و أمته و أرسى هويّة هذه الأمة فجزاه الله خيرا .

فكل منصف في هذه البلاد يعرف قدر الرجل و مكانته و ما قدّمه لوطنه و أمته. و لقد اشتغل كثير من الدّارسين و الباحثين بتفسير القرآن الكريم للعلامة ابن باديس الموسوم بـ: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" و قد صنّفت كتب و أنجزت رسائل جامعية و بحوث علمية و منتديات فكرية حول منهج الإمام في تفسيره. و إيماننا منّي بأهميّة تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس و منهجه فيه اجتهدت أن أخوض هذا المضمار على عظمة الأمر، و قلة الباع، حددت موضوع بحثي و دراستي حول : مصادر التفسير عند الشيخ ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" و منهجه في الإفادة منها .

و تتمثل إشكالية هذا الموضوع في مدى توافق المصادر التي اعتمد عليها ابن باديس في تفسيره و منهجه في توظيفها و المدرسة التفسيرية التي ينتمي إليها (المدرسة الإصلاحية) .

و قد جاءت طبيعة الدراسة وصفية إحصائية، و ممّا ساعد في تطبيق هذه المناهج على أتم صورة هو صغر حجم الكتاب (تفسير بن باديس الموسوم بمجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) فكان الاستقراء تاما و الإحصاء و التحليل يسيرا.

فقد جاءت خطة البحث كالآتي :

المبحث الأول : مصادر ابن باديس في تفسيره.

المطلب الأول- مصادر في التفسير وعلوم القرآن والحديث

المطلب الثاني- مصادر في العلوم الأخرى .

المبحث الثاني : منهج ابن باديس في الإفادة من مصادر

المطلب الأول- مسلكه في الإفادة من مصادر التفسير و علوم القرآن .

المطلب الثاني- مسلكه في الإفادة من مصادر الحديث و علومه .

المطلب الثالث - مسلكه في الإفادة من مصادر العربية و علومها.

الخاتمة : وفيها عرض لأهم النتائج المتوصل إليها

المبحث الأول : مصادر ابن باديس في تفسيره.

سأحاول في هذا البحث جرد المصادر و الكتب التي اعتمد عليها الشيخ ابن باديس في تفسيره "مجالس التذكير" مع ذكر عدد الاستشهاد و مواضعها في التفسير.

عَمَلِي فِي هَذَا الْمَطْلَب هُوَ جَرْدُ الْمَصَادِر⁽¹⁾ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الشَّيْخُ ابْنُ بَادِيسَ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِقْرَاءِ تَامٍ لِلْكِتَابِ الْمَطْبُوعِ بَيْنَ أَيْدِينَا، وَ حَاوَلْتُ تَرْتِيبَهَا عَلَى حَسَبِ الْكَثْرَةِ وَ التَّكَرُّرِ، وَقَدْ اقْتَصَرْتُ عَلَى ذِكْرِ أَمْثَلَةٍ وَ نَمَازِجٍ عَلَّهَا تَبَيَّنَ وَ تَوْضُحُ مَنْهَجِ الْإِمَامِ فِي مَسَارِهِ الْفِكْرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالمَذْهَبِيِّ.

يَقُولُ الشَّيْخُ الْإِبْرَاهِيمِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : " لَمْ يَكْتُبِ الْأَخُ الصَّدِيقُ أَمَالِيهِ فِي التَّفْسِيرِ، وَ لَمْ يَكْتُبِ تَلَامِذَتِهِ الْكَثِيرُونَ شَيْئًا مِنْهَا، وَضَاعَ عَلَى الْأُمَّةِ كَنْزَ عِلْمٍ لَا يَقُومُ بِمَالٍ، وَ لَا يَعُوضُ بِحَالٍ، فَمَاتَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ وَ مَاتَتِ طَرِيقَةُ ابْنِ بَادِيسَ فِي التَّفْسِيرِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبِي إِلَّا أَنْ يَذِيعَ فَضْلَهُ وَ عِلْمَهُ فَأَلْهَمَهُ كِتَابَةَ مَجَالِسٍ مَعْدُودَةٍ مِنْ تِلْكَ الدَّرُوسِ وَ كَانَ يَنْشُرُهَا فَوَاتِحَ لِأَعْدَادِ مَجْلَةِ الشَّهَابِ وَ يَسَمِّيَهَا "مَجَالِسَ التَّذْكِيرِ" وَهِيَ نَمُودَجٌ صَادِقٌ مِنْ فَهْمِهِ لِلْقُرْآنِ وَ تَفْسِيرِهِ لَهُ، كَمَا أَتَاهَا نَمُودَجٌ مِنْ أَسْلُوبِهِ الْخَطَابِيِّ أَسْلُوبُهُ الْكِتَابِيُّ.⁽²⁾

وَ يَقُولُ الْأُسْتَاذُ حَسَنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلُودَايَ : " نَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ ابْنَ بَادِيسَ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَدُونَ كُلَّ دُرُوسِهِ وَ أَعْمَالِهِ وَ لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا لِأَنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا بِتَعْلِيمِ الْجِيلِ الْجَدِيدِ وَ تَرْبِيَةِ الْأُمَّةِ النَّاهِضَةِ، وَ مَكَافَحَةِ الْأُمِّيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي رُبُوعِ الْوَطَنِ، وَفَقَ ذَلِكَ كُلَّهُ، كَانَ مَشْغُولًا بِمَصَارَعَةِ الْاسْتِعْمَارِ⁽³⁾، الَّذِي كَانَ يُؤِيدُ هَذِهِ الْعِلْلُ وَ الْأَمْرَاضَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَ يَقِفُ مِنْ وَرَاءِ الدَّاعِينَ إِلَيْهَا حَامِيًا وَ مَسَانِدًا .

وَ ذَكَرْتُ هَذَا حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ بَصْدَدَ دَرَاةٍ مَا وَصَلْنَا مِنْ تَرَاثِ الْإِمَامِ خَاصَّةً هَذَا التَّفْسِيرَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا "مَجَالِسَ التَّذْكِيرِ" فَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ، فَكُلُّ الْاسْتِنْتِجَاتِ فِي هَذِهِ الدَّرَاسَةِ إِنَّمَا هِيَ عَلَى الْمَطْبُوعِ وَ لَيْسَ أَحْكَامًا عَامَةً عَلَى مَنْهَجِ الْإِمَامِ فِي تَرَاثِهِ .

إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ نَقُولُ أَنَّ التَّفْسِيرَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا هُوَ مَجْلَةُ الْمَقَالَاتِ الصَّحْفِيَّةِ الَّتِي كَتَبَهَا الْإِمَامُ فِي مَجْلَةِ "الشَّهَابِ"، وَ مَعْلُومٌ أَنَّ الْكِتَابَةَ الصَّحْفِيَّةَ لَا تَتِيحُ لَهُ التَّدْقِيقَ فِي التَّقُولِ وَ الْإِكْتَارَ مِنَ التَّهْمِيشِ . وَ يَعْدُ تَفْسِيرُ ابْنِ بَادِيسَ لَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ التَّفْسِيرِ الْحَدِيثِ عَنْ طَرِيقِ الْمَقَالِ الصَّحْفِيِّ وَ يَسْمَى "التَّفْسِيرَ الْمَوْضُوعِيَّ" .

إِنَّ مَنْهَجَ الْمَقَالِ التَّفْسِيرِيِّ أَتَاحَ لِلْعَلَامَةِ الشَّيْخِ ابْنِ بَادِيسَ الْانْطِلَاقَ الْوَاسِعَ فِي التَّبْعِيرِ عَنْ مَشَاعِرِ الْأُمَّةِ تَحَاةِ أُمُورِ الْوَاقِعِ الْمَعْقَدِ فِي ظُرُوفِ اسْتِثْنَائِيَّةٍ تَحْتَ وَطْأَةِ الْمُحْتَلِّ الْفَرَنْسِيِّ، وَ تَرَدَّى أَوْضَاعَ الْجَزَائِرِيِّينَ فِي كُلِّ مَنَاحِي الْحَيَاةِ، فَحَاوَلَ إِلْقَاءَ الضُّوءِ عَلَى هَذِهِ الْمَشْكَلَاتِ وَ الْبَحْثَ عَنْ حُلُولِهَا مِنْ وَاقِعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ اسْتِشْهَادِ بَيِّنَاتِهِ، وَ كَانَ أَوَّلَ مَا ظَهَرَ هَذَا النَّهْجُ التَّفْسِيرِيُّ كَانَ فِي مَقَالَاتِ "العُرْوَةُ الْوُثْقَى" وَ "الْجِهَادُ السِّيَاسِي" ل: لجمال الدِّينِ الْأَفْغَانِي وَ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ عَبْدِ فَسَارِ الْإِمَامِ ابْنِ بَادِيسَ عَلَى خَطَاهُمَا فِي فَوَاتِحِ "مَجْلَةِ الشَّهَابِ" حَتَّى وَصَلَ إِلَيْنَا الْعَمَلُ التَّفْسِيرِيُّ الْكَبِيرُ. "مَجَالِسُ التَّذْكِيرِ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ" الْمَشْهُورِ بِتَفْسِيرِ ابْنِ بَادِيسَ الَّذِي رَكَزَ عَلَى الْأَتِّجَاهِ الْهَدَائِيَّ وَ الْإِصْلَاحِي .

مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ ابْنُ بَادِيسَ فِي مَصَادِرِهِ فِي التَّفْسِيرِ - كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ - يَجْعَلُنَا نَفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرَاوِجِ وَالْمَصَادِرِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا الْإِمَامُ فِي الدَّرْسِ التَّفْسِيرِيِّ الَّذِي يَلْقِيهِ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ طِيلَةَ 25 سَنَةٍ وَ الَّذِي كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ

المتقدمين شرحا و استفاضة و بيانا لمصادره في التفسير ، و بين ما كتبه كفواتح لأعداد مجلة "الشهاب" تحت "مجالس التذكير" (4)

رغم صلة ابن باديس بكتب الأقدمين و دراسته لكثير من مصنفات المحدثين و الفقهاء و الصوفية و المتكلمين و الأدباء من المتقدمين و المتأخرين إلا أنه - رحمه الله - كان له نزعة استقلالية في الفهم متحررا من التقليد . حيث يقول - رحمه الله - في الوصية التي وجهها إلى طلاب العلم و المعرفة: "فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل و فيما ينظر من الأدلة تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره، و إنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لا بدّ له من استعمال فكره هو بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئنّ له قلبه و يسمى - حقيقة - علماً و به يأمن فيما أخطأ فيه غيره" (5)

و نمثل لهذه النزعة الاستقلالية بتفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتَخَذُونَ مَصْنَعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: 129] يحاول أن يثبت أنّ العرب كان لهم تاريخ عريق و حضارة شاحخة قبل نزول الإسلام فيفسر المصانع بمعناها الاشتقاقي و يخالف المفسرين في قولهم بأنّها مجاري للمياه أو هي القصور ويقول: "و لكن ليت شعري ، ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى "المصنع" اللفظي الاشتقاقي والذي افهمه ولا أعدل عنه هو أنّ المصانع جمع مصنع من الصُّنْع كالمعامل جمع معمل من العمل وأنّها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة و يقتضيها العمران ، وهل كثير على أمة توصف بما وُصفت فيه في الآية أن يكون لها مصانع بمعناها العربي عندنا" (6) ذكرت هذا حتى يعلم الدارس لتفسير ابن باديس أنّ الإمام لم يكن أسيراً لمن سبقه ولا عالة على كتبهم بل كان مجتهداً محققاً ومنقحاً يختار ما ترجح لديه من دليل .

كان الإمام ابن باديس يستند قبل كل شيء إلى كتاب الله تعالى وإلى ما صحّ من بيان رسول الله صلى الله عليه و سلم و بيان السلف الصالح من الصحابة و التابعين و هذا واضح بجلاء في تفسيره يعكس خلفيته السلفية و الأثرية، قال - رحمه الله - تحت عنوان "المصلحون و السنة": "تقوم الدعوة الإصلاحية على أساس الكتاب و السنة، فلا جرم كان رجالها من المعتنين بالسنة القائمين عليها رواية و دراية" (7).

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "فسلك في درس كلام الله أسلوباً سلفي النزعة و المادة ، عصري الأسلوب والمزمى مستمداً من آيات القرآن وأسرارها وأكثر ممّا هو مستمد من التفسير وأسفارها" (8).

المطلب الأول: مصادره في التفسير وعلوم القرآن والحديث

أولاً: مصادره في التفسير:

تفسير الطبري حيث جاء الاستشهاد به في أربعة مواضع من تفسيره ج 1/ص 93 ، ج 2/ص 77 ج 2/388.

تفسير الكشاف للزجاج حيث استشهد به في موضع واحد : ج 2/ص 388.

تفسير الرّازي : ج 2/ص 116 ، حيث قال : " استدلل النيسابوري بأنّه قيل لبني إسرائيل : " اذكروا نعمتي " و لأمة محمد : " اذكروني " (9) ، و يعني بالنيسابوري الإمام الرّازي .

تفسير الجلالين ، جلال الدين السيوطي و جلال الدين المحلي .

التفسير الصوفي في معرض الرد ، حيث يقول : " أمّا ما لم تتوفّر فيه الشروط المذكورة و خصوصاً الأول والثاني فهو الذي لا يجوز في كلام الله ، و هو كثير في التّفسير المنسوبة لبعض الصّوفية كتفسير أبي عبد الرحمن السّلمي⁽¹⁰⁾ ، و التفسير المنسوب لأبن عربي⁽¹¹⁾ من المتأخرين⁽¹²⁾ .

ثانياً - مصادره في أحكام القرآن .

أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي ، أكثر من الاستشهاد به في تفسيره حيث جاء في أكثر من موضع :
ج1/232 ، ج1/432 ، ج2/79 ، ج2/117 ، ج2/226 .
أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص الحنفي في المواضع الثّالية: ج1/10 ، ج2/136 ، ج2/383 .

ثالثاً - مصادره في علوم القرآن :

الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي : ج2/343 .

البيان في آداب حملة القرآن، النووي : ج1/78 .

رابعاً - مصادره في الحديث و علومه⁽¹³⁾ :

1. صحيح البخاري اعتمد عليه في 13 موضعاً :

ج1/392،377،358،357،338،323،180 .

ج2/183،173،147،146،110،95 .

2. صحيح مسلم : في 19 موضعاً :

ج1/418،377،357،338،335،327،180،171 .

ج2/359،358،342،341،340،303،283،146،94،78،69 .

3. سنن الترمذي : استشهد به في المواضع الثّالية :

ج1/327،296،191،190،188،141،80،79،73،72 .

ج2/135،136 .

4. موطأ الإمام مالك :

ج1/432،418،326،324 .

ج2/384،268،267،184،109 .

5. سنن أبي داود :

ج1/83 ، 169 ، 204 .

ج2/135 .

6. مسند الإمام أحمد :
ج1/ 191، 196، 296، 327.
ج2/ 82، 135، 197، 322، 323.
7. سنن النسائي :
ج2/ 135، 342، 346.
8. سنن البيهقي :
ج1/ 74، 82.
ج2/ 156.
9. صحيح ابن حبان :
ج1/ 169، 204، 327.
10. مستدرک الحاكم :
ج1/ 327، 196.
ج2/ 156.
11. معجم الطبراني : ج1/ 377.
ج2/ 156.
12. القبس شرح موطأ مالك بن أنس لابن العربي المالكي :
ج2/ 185، 259.

المطلب الثاني - مصادره في العلوم الأخرى :

الجوهري (ت320هـ) في الصحاح : ج1/ 244، 332.

استعان الإمام ابن باديس بالمعاجم القديمة خصوصا معجم الصحاح للجوهري الذي يعتبر من أقدم المعاجم، ومن الأمثلة على ذلك ، في لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79] . قال : "النافلة" قال الجوهري : "هي عطية التطوع من حيث لا يجب ، ومنه نافلة الصلاة أي أنّ الصلاة مؤداة على وجه التطوع دون الوجوب فلذا قيل فيها : نافلة ، و هي كلام الجوهري بمعنى شيء ، فهي اسم غير مصدر" (14)

كما اعتمد ابن باديس على مصادر أخرى مثل :

- 1- الأذكار للنووي (ت 676هـ) : ج1/ 36، 78. ج2/ 384.
- القاضي عياض المالكي في الشفا⁽¹⁵⁾ : ج1/ ص 329 ، ج2/ 384 .

و من الأمثلة على ذلك عندما نقل كلاما عن القاضي عياض المالكي من كتابه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " عن الإقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في تقسيمه للزمن على أعماله الكثيرة و المتنوعة ، وذلك في معرض تفسيره قوله: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء78]⁽¹⁶⁾.

إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية : ج2/46 ، عندما نقل عنه أثرا مسندا إلى معاذ بن جبل-رضي الله عنه- عن هجر القرآن⁽¹⁷⁾، حيث يقول ابن باديس : " و في هؤلاء جاء ما ذكره الإمام ابن القيم في كتاب "إعلام الموقعين " عن حماد ابن سلمة ثنا أيوب السجستاني عن أبي قلابة عن يزيد ابن أبي عمرة عن معاذ بن جبل قال : " تكون فتن، فيكثر المال ، و يفتح القرآن حتى يقرأه الرجل و المرأة والصغير و الكبير و المنافق و المؤمن فيقرأه الرجل فلا يتبع كلاما ، فيقول : و الله لا قرأته علانية فيقرأه علانية فلا يتبع فيتخذ مسجدا و يبتدع كلاما ليس من كتاب الله و لا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإياكم و إياه فإنه بدعة و ضلالة " قاله معاذ ثلاث مرّات "⁽¹⁸⁾.

ابن رشد ينقل الأبي⁽¹⁹⁾ : ج2/148-149.(شرح الأبي على صحيح مسلم).

الغزالي (ت 505 هـ) : نقل عنه كلاما من " إحياء علوم الدين " هذا الكتاب الذي وصفه بأنه من كتب "الفقه النفسي " حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:131]

و في هذه الآية مع النهي إرشاد على علاج الحسد ، فإنّ الحسد مرض نفسانيّ معضل ، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يعالج، و قد وصف له الحكماء أنواعا من العلاج ، فصلّتها كتب السنّة و كتب الفقه النفسي ككتاب الإحياء " .

1. ابن خلدون ت (808 هـ) عند كلامه عن العرب في القرآن ، و كان يستعمل عباراته دون الإشارة إليها كعبارة " لازم من لوازم العمران "⁽²⁰⁾.

2. القسطلاني (ت 923 هـ) في شرح صحيح البخاري .

الدردير عند تفسير سورة يوسف الآية : 108 ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

3. نقل عنه مباحث لفظية . و كتاب "الشرح الكبير"⁽²¹⁾ في الفقه المالكي عندما نقل عنه حكم من يسوق بقرة أو شاه إلى ضريح من الأضرحة ليزبحها عنده ، فإنه ضلالة و ذلك في باب التذر⁽²²⁾.

المبحث الثاني : منهج ابن باديس في الإفادة من مصادره :

إنّ الشيخ ابن باديس - رحمه الله - من خلال خطبته في افتتاح درس التفسير أشار إلى المصادر التي يعتمد عليها في تفسيره، و لكنّه لم يصرح عن الطريقة و لا كيفية استفادته من المصادر حتى لا يقول قائل أنّ الشيخ خرج عن منهجه أو لم يلتزم ما صرّح به في مقدّمة تفسيره ، بضرورة التدقيق في ذكر المصادر والإحالة إلى الكتب. كما كان لابن باديس و سائل يستخدمها في تفسيره، و الذي يحدد هذه الوسائل هو شخصية المفسّر ونوعية ثقافته و اتجاهه الفكري و المدرسة التفسيرية التي تتبعها. وطبيعة تفسيره و هدفه الذي يرجوه منه وهذه الوسائل ضرورية لكل مفسّر و لا يخلو منها تفسير في التقويم و الحديث (23).

لا شك أنّ ملاحظة الوسائل التي استعملها الشيخ ابن باديس تساعدنا في التعرف على منهجه في التفسير و كذا مصادره وطريقة استفادته و توظيفه لها ، ف تفسير ابن باديس الإصلاحية يتفق مع طبيعة العصر وخصوصية المرحلة التي كانت تمرّ بها الجزائر آنذاك ، فكان همّه الإصلاح و إعادة بعث الأمة من جديد و هذا لا يكون إلا بربط الأمة بكتاب الله عزّ وجل .

و هذه الوسائل مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصادره و ثقافته العريضة المتنوعة، الإسلامية و اللغوية والتاريخية والعلمية وكذلك ثقافته النفسية وكذلك وقفاته المتأصلة و الفاحصة أمام نصوص القرآن الكريم ، وتلك الشخصية العلمية المستقلة التي تأبى الجمود و التقليد .

يقول الشيخ الإبراهيمي : " وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات "مجلة الشّهاب" أنّه يعتمد في هذه الدّروس على تفاسير مخصوصة في مواضيع مخصوصة ، كالطّبري في المأثور ، والكشاف في أسرار الإعجاز ، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهم الرجال مقاييس لفهمه ، ولا يعطيها أكثر من أنّها فهم تصيب وتخطئ، أما المعنى الصحيح لكتاب الله عز وجل فيستجليه من البيان العربي ، والشرح النبوي ومن مقاصد الدين وأسرار التشريع ، ومن عجائب الكون وسنن الله فيه ، ومن أحكام الاجتماع الإنساني ومن تصاريف الزّمن ونتائج العقول وثمرات العلوم التجريبية (24) .

إنّ التأمّل في تفسير ابن باديس - رحمه الله - يجد نفسه أمام لون جديد في التفسير ، إنّه نقلة في التفسير الإصلاحي بعد تفسير "المنار" للشيخ رشيد رضا ، فهو إمام مجدد بحق ، جعل من مجالس التذكير وسيلة لنشر الوعي و ربط الأمة بمصدرها الكتاب والسنة وحفظ لسانها العربي من "الفرنسة" فكان الدّرس التفسيري للشيخ ابن باديس درعا وحصانة للمجتمع الجزائري من الانسلاخ عن الثّوابت والقيم

إنّ الشيخ ابن باديس - رحمه الله - قد سلك في تفسيره مسلك التحقيق والتّحري في ثبوت ما ينقله وصحّة ما يخطئه ، فيقول - رحمه الله - في سياق التّحذير من التساهل في ذلك تحت تحقيق تاريخي : " رُوِيَ في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصّحّة ، و معظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التّفاسير مما تُلقِي من غير تثبّت ولا تحييص من روايات كعب الأحبار و وهب بن منبه ، وروي شيئا من

ذلك الحاكم في "مستدركه" و صرّح الذهبي ببطلانه و من هذه المبالغات الباطلة أنّه ملك الأرض كلها مشارقها و مغاربها، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه و مجهولةً لديه و على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشّام⁽²⁵⁾.

المطلب الأول: مسلكه في الإفادة من مصادر التفسير :

كان منهج ابن باديس في الإفادة من المصادر التي استعان بها في التفسير متوافقة مع ما كان بصدد إبرازه، و هو لفت نظر المتلقي للتفسير إلى المعاني و العبر و الأحكام أكثر من أيّ شيء آخر، و لذلك لم يكن يميل إلى الإغراق في التّقول و التّدقيق في مصادرها و مكائنها و إنّما كان يكتفي بإشارته الخفيفة إلى تلك الكتب إن تطلب الأمر ذلك ، و في أحيان كثيرة كان يشير إليها، مكتفياً بحصول المقصود و العبرة من التّقل و سبب آخر لجأه إلى هذا الأمر و هو أنّه كان يحرّر هذه المقالات المحتوية على التفسير إلى المجلّة .

و قد استطلعنا تلك المنهجية من خلال ما سبق بيانه من المصدر فوجدناها على الشكل التّالي :

أولاً: لم يكن يشير إلى كتب التفسير التي ذكرها في خطبة افتتاح دروسه ما خلا موضعين ، نقل في الموضع الأوّل عن الإمام الزمخشري حال الموصوفين من عباد الرّحمن . قال الشيخ ابن باديس: "موعظة": قال جابر الله في الكشف عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرّحمن : إنّهم ينفرون عن محاضر الكذابين و مجالس الخطّائين ، فلا يحضرونها و لا يقربونها تنزها عن مخالطة الشّر و أهله و صيانة لدينهم عمّا يثلمه، لأنّ مشاهدة الباطل شركة فيه ، و لذلك قيل في النظارة إلى كلّ ما لم تسوّغه الشريعة : هم شركاء فاعلية في الإثم ، لأنّ الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة و رغبتهم في التّظر إليه.. اهـ"⁽²⁶⁾

و في الموضع الثاني :

ذكر أثرًا عن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - من تفسير ابن جرير يقول⁽²⁷⁾ " وقد روى ابن جرير بسند حسن أنّ رجلاً جاء إلى عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : " فأتيت الصّلاة الليلة فقال " أدرك ما فاتك من ليلتها في نهارك فإنّ الله جعل الليل والنّهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا"⁽²⁸⁾.

المطلب الثاني: منهجه مع مصادر الحديث.

أمّا في جانب الحديث فكان هو الغالب على نقوله حيث كان كثيراً ما يعتمد على الأحاديث النبوية في تفسيره حيث كان يقول : " و ما أحسن التفسير عندما تعضّده الأحاديث الصّحاح " وكانت منهجيته في نقل الأحاديث من مظانّها متباينة فإذا كان الحديث صحيحاً كأن يكون موجوداً في الصّحيحين البخاري و مسلم ، فإنّه يكتفي بعبارات دالة على الصّحة كقوله : " و ثبت عنه صلى الله عليه و سلم أنّه استشفى و استرقى ببعض آيات القرآن... ثمّ ساق أحاديث في الصّحيحين"⁽²⁹⁾

و كقوله - رحمه الله - في المسألة الرابعة : " هل المقام المحمود خاص به صلى الله عليه وسلم ؟ قد علمت من المسألة السّابقة أنّه مقام الشّفاة العظمى ، و هي خاصة به فهو خاص به . يدل عليه حديث جابر

الصحيح : " من قال حين يسمع النداء -الآذان- : " اللهم رب هذه الدعوة التامة و الصلاة القائمة آت محمد الوسيلة و الفضيلة و ابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة "(30). و هو موجود في صحيح البخاري .

و إذا كان الحديث قد رواه أكثر من إمام من أئمة الحديث فإنه يشير إلى ذلك بقوله : " روى الأئمة في الصحيح ، كقوله - رحمه الله- "(31): "تأييد و اقتداء :

روى الأئمة عن كعب ابن مالك - رضي الله عنه - أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك ، أنه لما جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بعدما تاب الله عليه قال : " يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي إلى الله و إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " . قال : قلت : " فإنني أمسك سهمي الذي بخير. "(32) والحديث رواه البخاري و مسلم .

و في بعض الأحيان يذكر ألفاظ حديث ما في سياق كلامه دون الإشارة إلى أنه حديث نبويّ و ذلك لشهرته كقوله : "... و هذا هو طور انخطاط الأمم ، الانخطاط التام و ذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل و ينتشر فيها الفوضى بأنواعها فتتخذ رؤوس جهال لأمر دينها و أمور دنيها فيقودونها بغير علم ، فيضلون و يهلكون و يهلكون و يفسدون و لا يصلحون. "(33)

فكلامه في الأخير جزء من حديث رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس و لكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهّالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"(34)

و على الجملة فقد كان ابن باديس يتحرى الصحيح من الحديث قدر الإمكان و كان اعتماده على الصحيحين و الموطأ أكثر من غيرهما من كتب السنة و كان الغالب عليه أن يذكر موضع الحديث من كتب السنة.

المطلب الثالث : مسلكه في الإفادة من مصادر العربية و علومها.

كان ابن باديس يعتمد على مصادر الأدب و المعاجم و دواوين الشعر كثيرا إما تلميحا أو تصريحاً، فنجده قد استعان بمعجم الصحاح للجوهري ، و دواوين أبلغ الشعراء الجاهليين ، و ديوان جرير ، حيث استشهد به لبيان مدلول كلمة "قفو" فقال: "... و لكونه أتباعا بغير علم جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل قال جرير : و طال حذاري خيفة البين و النوى و أحدىثة من كاشف متقوف "(35) أي منقول بالباطل "(36). و ديوان زهير بن أبي سلمى (37) حيث استشهد في تفسيره دون التصريح باسم الشاعر حيث يقول : "كما قال شاعرهم - أي البشر - لأنّ الشاعر العربي عبّر عن طبع بشري:

سألنا فأعطيتم و عدنا فعدتم ومن أكثر التّسال يوما سيُحرّم. "(38)

و حتّى من المتأخرين كالبردة للبوصيري (ت 695هـ) حيث استشهد به في تفسيره: "نبيّ أمّي من أمة أميّة كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم، فلم يكن ليعلم هذا و يقول إلّا بوحيّ من الله الذي خلق الخلائق و علم حقائقها ...

كفك بالعلم في الأمّي معجزةً في الجاهلية و التأديب في اليّتم⁽³⁹⁾

و ديوان المثني⁽⁴⁰⁾ مثل قوله: "قال أبو الطيّب المثني:

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الْأَسْلِ وَ الطَّعْنُ عِنْدَ مَحَبِّهِنَّ كَالْقُبْلِ⁽⁴¹⁾

و بالجملة فقد ذكرنا فيما سبق أنّه لم يكن يميل إلى كثرة النّقول عن الكتب إلا إشارات خفيفة ذكرنا جملها، و إن إirاده لهذه النّقول إمّا يكون على وجه الاستدلال أو الإستئناس أو في معرض الرّد.

و كذلك منهجه في عرض المصادر إمّا يكون بالتّصريح بالمصدر أو صاحبه، أو بدون ذكر أيّهما، يعرفها المتأمّل في تفسيره بالعودة إلى مظاهرها.

الخاتمة:

أهم النتائج التي خلصت بها من خلال هذه الدّراسة، نعرضها مذكرين بها لأهميتها:

1. المصادر التي استقى منها ابن باديس وفيرة و مختلفة كما يظهر. في مقدّمته والتي لم يشر إلى طريقته في الإفادة منها، و كذلك المصادر التي لم يفصح عنها، والتي يكتشفها المتابع و المتأمّل، بالإضافة إلى الرصيد العلمي المتراكم لدى الشيخ طيلة حياته العلمية في مختلف الفنون.
2. يظهر على تفسير ابن باديس التنوع الجلي في طبيعة المصادر التي رجع إليها؛ فبالإضافة إلى المصادر التي تخدم التفسير بطريق مباشر، فقد كان للعلوم الأخرى حضور بيّن على غرار الكتب العلمية وكتب التاريخ والفلسفة وغيرها، في إشارة إلى أن العلوم يخدم بعضها بعضا.
3. كان ابن باديس في تفسيره مستقلا بفكره، مستنكرا للطرائق الجامدة، يأخذ من المصادر ما ترجّح عنده أنّه موافق لمراد الله عزّ و جل و مراد رسوله صلى الله عليه وسلم.

قائمة المصادر و المراجع:

- 1- ابن باديس، تفسير "محالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير"، اعتنى به و خرّج أحاديثه و آثاره، أبو الرّحمن محمود. دار الرّشيد، دار ابن حزم، ط 1، 1430هـ / 2009 م.
- 2- حسن عبد الرّحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب 1988م.
- 3- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، (1-5)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 4- مجلة الشّهاب، (1-16)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- 5- صلاح عبد الفتّاح الخالدي، مدخل إلى ظلال القرآن، دار الشّهاب للطباعة و النّشر، باتنة، الجزائر.
- 6- عمّار الطّالبي، ابن باديس حياته و آثاره، دار الغرب الإسلامي.
- 7- الذهبي، سير أعلام التّبلاء مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان.
- 8- الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- 9- الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط5- 1970م .
- 10- أحمد طالب ، منهجية إعداد المذكرات و الرسائل الجامعية ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، ط 1 . 2001
- 11- محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 1982م .
- 12- مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان .
- 13- الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 14- مجلة الوعي العدد 1، رجب شعبان ، 1431 هـ / جويلية 2010م .

الهوامش:

- (1) المقصود بالمصادر عند ابن باديس هي الكتب الخاصة التي أخذ منها و اعتمد عليها في تفسيره و المراجع التي رجع إليها المؤلفات التي نقل منها يزيد على ذلك أنواع الثقافة التي يميز بها الإمام ابن باديس كما في شخصيته .
- مصطلح مصادر التفسير عند المتقدمين إذا أطلق يقصد به تفسير القرآن بالقرآن و بالسنة و بأقوال الصحابة و التابعين غيرها ، و هو ما يستعمل بالتفسير بالمأثور، و هناك من كان يعبر عليها باللفظ (المأخذ) فيقول مأخذ التفسير .
- يقول الدكتور أحمد طالب : "و إذا أردنا أن نفرق بصفة واضحة بين المصادر و المراجع فلا بد من شرح ذلك حتى ندرك القصد من المصطلح جيداً فحتى يكون مصطلح (المصادر) واضحاً معنا خلال هذه الدراسة نعي به كل ما اعتمد عليه ابن باديس من كتب و غيرها .
- (2) ابن باديس، تفسير : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، اعتنى به و خرج أحاديثه و آثاره ، أبو عبد الرحمن محمود، دار الرشيد، دار ابن حزم، ط1، 1430هـ / 2009م . 13/1 .
- (3) لقد ذكره الإمام محمد البشير الإبراهيمي كلمة الاستعمار و له كلام نافع مائع حول هذا الكلمة ، ينظر : في آثاره 3/4
- (4) ذكر الإمام في جملة المصادر التي اعتمد عليها تفسير أبي حنّان الأندلسي ، و لعل المتبع لتفسير ابن باديس المطبوع لا يقف على موضع واحد يستشهد فيه الإمام بهذا التفسير أو مؤلفه، و هذا ما سنشير إليه في منهج ابن باديس في الاستفادة من المصادر .
- (5) عمار طالي ، ابن باديس حياته و آثاره ، بيروت ، لبنان، 204/4.
- (6) تفسر ابن باديس 406/2-407.
- (7) الشهاب 18/12، عبد الحميد ابن باديس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان .
- (8) تفسير ابن باديس ، 336/2
- (9) ينظر : تفسير ابن باديس 2 / 116.
- (10) هو محمد بن الحسين أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري ، شيخ الصوفية ، و صاحب تاريخهم و طبقاتهم ، المتوفي سنة 412 هـ، ألف حقائق التفسير ، ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي ، 1046/ 3، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .
- (11) هو محمد بن علي الطائي الحاقمي المرسى بن عربي ، نزيل دمشق ، المتوفي سنة 638هـ ، ينظر ترجمته سير أعلام النبلاء للذهبي ، 49-48/23.
- (12) تفسير ابن باديس ، 227/ 2.
- (13) يقول الإمام ابن باديس مستاءً من الوضع الذي آل إليه الكثير من علماء عصره من الزهد في كتب السنة : " إنه ليقل فيالمصدرين للتدريس من كبار العلماء في أكابر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ و البخاري و مسلم و نحوها مطالعة فضلاً عن غيرهم من أهل العلم و فضلاً عن غيرهم من كتب السنة . ابن باديس حياته و آثاره 409/1.
- (14) تفسير ابن باديس ، 332/ 1.
- (15) بعد تخرّج الإمام ابن باديس من جامع الزيتونة ، بدأ دعوته الإصلاحية بالمسجد الكبير بقسنطينة بدروس يشرح فيها كتاب " الشفا بتعريف حقوق المصطفى "
- (16) تفسير ابن باديس 329/1
- (17) المصدر نفسه 46/ 2.
- (18) الحديث صحيح أخرجه الحاكم 466/4 أو ابن وضاح في " البدع و النهي عنها " عن حماد ابن سلمة.
- (19) محمد بن خلفه بن عمر الأبي الوشتاني المالكي ، من نبغاء تلاميذ الإمام بن عرفة : (ت827هـ) من أهل العلم تونس ، عالم بالحديث ، ولي قضاء الجزيرة سنة 1406م . له كتاب " إكمال المعلم لفوائد كتاب مسلم " في شرح صحيح مسلم ، جمع فيه بين المازري و عياض و القرطبي و النووي مع زيادات من كلام شيخه ابن عرفة و شرح المدونة ، ينظر : الأعلام ، للزركلي ، 115/6 ، معجم المؤلفين التونسيين ، 47-46/1.
- (20) تفسير ابن باديس 407/2.
- (21) الشرح الكبير للدردير بحاشية الدسوقي .

(²²) تفسير ابن باديس ، 130/1

(23) صلاح عبد الفتاح الخالدي ، مدخل إلى ظلال القرآن ص: 181.

(²⁴) من الفوائد التي وجدت في تفسير ابن باديس أنه استعمل كلمة "جارية" في اللسان العامي الجزائري حيث يقول : " و يقول الطبيب المستغرب هذا محال! في التراب مكروب و في الزئبق مكروب فأنا يشفيان مريضاً أو ينقسان عن مكروب ، فكلمة مكروب أصلها فرنسي (microbe) ومعناها جرثوم ، استعمل العامية لتقريب المعنى في معرض الرد على منكري بعض الأحاديث بعقولهم السقيمة ، تفسر ابن باديس 361/2.

(²⁵) تفسير ابن باديس ، 336/2.

(²⁶) تفسير ابن باديس 155/2-156.

(²⁷) المصدر نفسه ، 77/1-78.

(²⁸) هذا الأثر ضعيف : رواه ابن جرير الطبري في "تفسيره" (30/19) قال: حدثنا ابن حميد قال : ثنا يعقوب القمي عن حفص ابن حميد عن شمر بن عطية عن شقيق قال : جاء رجل إلى عمر ابن الخطاب... فذكره ، و هذا إسناد حسن - كما قال المصنف - لولا أنّ شيخ الطبري ابن حميد - و هو محمد ابن حميد التازي- ضعيف بل اتهمه بعضهم - كأبي

زرعة و أبي حاتم و التستائي وغيرهم

(²⁹) تفسير ابن باديس ج 1/ص 358.

(³⁰) رواه البخاري 614 ، و غيره عن جابر ابن عبد الله .

(³¹) تفسير ابن باديس ، 145/2.

(³²) الحديث صحيح ، قطعة من حيث رواه البخاري (4418) و مسلم (2769) مطولا عن كعب بن مالك-رضي الله عنه-

(³³) تفسير ابن باديس 102/1.

(³⁴) رواه البخاري في الصحيح / كتاب العلم باب رقم 34 ، حديث رقم 100.

(³⁵) لبّيت في ديوان جرير و فيه غربة (غربة) بدل (خيفة) و (يتقوّف) بدل (متقوّف)

(³⁶) تفسير ابن باديس ، 262/1.

(³⁷) زهير بن أبي سلمى ربعة بن رياح المزني ، احد فحول الجاهلية الأربعة ، و هو أعف الشعراء قولا ، و أكثرهم تهذبا لشعره. ينظر : الأعلام للزركلي 52/3. و هذا البيت لزهير بن أبي سلمة و هو البيت الأخير من معلقته .

(³⁸) تفسير ابن باديس ، 214/1-215.

(³⁹) المصدر نفسه ، 156/1.

(⁴⁰) هو أحمد بن الحسين الكوفي ، أبو الطيّب المتنبّي ، شاعر حكيم أحد مفاخر الأدب العربي له ديوان شعر مطبوع ، و مشروح شروحا وافية ، توفّي سنة 354 هـ، ينظر : الأعلام

للزركلي ، ج 1/115.

(⁴¹) تفسير ابن باديس ، 201/2